

أسس التعايش السلمى فى الإسلام

د/ عبد الله بن عبد العزيز المصلح (*)

العالم إما أن يعيش فى ظل شهادة الإسلام على العالم، وعندها رأينا كيف كان التعايش السلمى فى الأرض ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿هود: ١١٨-١١٩﴾، أى: للاختلاف وقيل للرحمة، وقد يُشار بذلك إلى شيئين متضادين، كقوله تعالى: ﴿لَا فَاْرِضٌ وَلَا بَكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨]. قال القرطبي: عوان بين ذلك ولم يقل بين ذينك، وهذا أحسن الأقوال لأنه يعم^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

لأن الله حكم البشرية سيظل منها كافر ومنها مؤمن، وأنهم يعيشون على رقعة أرضية واحدة، فلا بد من نظام يضمن لهم التعايش، وعلى هذا يكون السلم هو الأصل فى العلاقات بين الناس، وحرب طارئة، وهو فى ظل الإسلام موجود بين المسلمين بعضهم البعض، فقد قال ﷺ: «المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، وحرّم الاعتداء على الدين وعلى النفوس والأعراض والأموال؛ حتى يعيش الفرد فى أمن وأمان، وليس هذا قاصراً على المسلمين بل على كل من يعيش بين ظهرانيهم من المعاهدين والمؤمنين، وقد جرب الجميع ذلك، فلم يشهد التاريخ أن المسلمين أجبروا أحداً على ترك دينه بل أوجب الإسلام حماية المعاهد، فقد قال ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٢)، ولما فتحت الشام وجاء الخليفة عمر لتوقيع معاهدة الاستسلام لم يدخل

(*) الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.

(١) تفسير الجامع للقرطبي: ١١٥/٩.

(٢) رواه أبو داود ٤٣٧/٣ رقم ٣٠٥٢، والبيهقى ٢٠٥/٩.

الكنائس ولم يصل فيها، ولما سئل عن ذلك قال: أخشى أن يحتاج المسلمون بذلك في تحويلها إلى مساجد! ولكل ذلك ظل اليهود والنصارى يعيشون في جزيرة العرب وفي الشام ومصر واليمن والمغرب، وإلى اليوم ينعمون بالأخوة الإنسانية والوطنية، وقد شاهدوا أنفسهم بذلك، بينما نجد العكس في الأندلس^(١) وأوروبا والبلقان وروسيا والصين، فقد أريد المسلمون إبادة تامة، وأجبروا على تغيير أسمائهم، ونقلوا من أماكنهم إلى أماكن أخرى، ولا يزال الغرب في هذا العصر الذي يتشدد فيه بالحرية يصف الإسلام وأهله بالإرهاب، ويضايقهم في كل مكان، ويتهك خصوصياتهم في الحجاب ونحوه، وهذه مقارنة سريعة للتعايش السلمي الذي يؤمن به المسلم ويفعله، والتعايش في ظل سيطرة غير المسلمين كما سجله التاريخ وشهد به القاصي والداني.

وكان ﷺ هو القدوة الأولى في حسن التعامل مع الناس، ولو كانوا مخالفين له في المعتقد، إذ سُمح لوفد نصارى نجران المؤلف من حوالي ستين شخصاً بدخول مسجده الشريف، وأجلسهم فيه لفترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم، فقام المسلمون لمنعهم، إلا أن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك، وتركهم يصلون في طمأنينة^(٢)، كما زار جاره اليهودي المريض، فمن أنس أن غلاماً ليهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «أسلم، فأسلم»^(٣)، وحتى يكون التعايش مع المخالف منهجاً واضحاً، أقر الإسلام الصلح مع الكافرين، فقد قال ﷺ عن حلف الفضول: «لو دعيت لمثله أجبت». وعقد مع اليهود عهداً عُرف بوثيقة المدينة، كما هي مبينة في سيرة ابن هشام^(٤)، ومن أهم ما تضمنته هذه الوثيقة، أن الحرية الدينية مكفولة للجميع، وأن الجميع يأمن بعضهم بعضاً، بل يتعاونون على كل من

(١) ولما أجبر النصارى المسلمين واليهود في الأندلس على التنصر وترك دينهم وتغيير أسمائهم، لجأ كثير منهم إلى المغرب والشمال الإفريقي مسلمين ويهود، وآوى المسلمون هناك اليهود كما فعلوا لإخوانهم المسلمين، وظلوا فيها محبين وإلى اليوم.

(٢) انظر: السيرة النبوية: ١/ ٥٧٤. (٣) انظر: صحيح البخاري ٤/ ٤، وانظر: فتح الباري ١٠/ ١١٩ رقم ٥٦٥٧.

(٤) السيرة: ٢/ ١٠٥-١٠٤.

اعتدى على أحد منهم من خارج هذا الوطن المشترك بين المسلمين واليهود، وهو المدينة المنورة.

كما عاهد النبى ﷺ مشركى العرب فى صلح الحديبية عهداً تضمن إيقاف الحرب عشر سنين، وتضمنت أموراً كانت ثقيلة على المسلمين لما رأوا فيها من الهضم، كالرجوع دون رؤية البيت الحرام وهم محرمون، وإرجاعهم من أتاهم مسلماً إلى مكة، لكنهم قبلوا ذلك من أجل الصلح^(١) (والصلح خير).

كما صالح إمارات وقبائل فى حدود الشام، كأهل أيلات وأهل أذرح، وصالح الأكيدر صاحب دومة الجندل^(٢).

كما أرسل ﷺ إلى ملوك الأرض فى زمنه يعرض عليهم الإسلام والتعايش السلمى والرحمة العالمية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨]. وكانت لتلك الرسائل آثارها الإيجابية إذ أن منهم من آمن وتابع، كما وقع من ملوك حمير وعمان وملك الحبشة النجاشى -رضى الله عنه-، ومنهم من هادن كالمقوقس ملك مصر، ومنهم من عاند وكابر كملوك الغساسنة وكسرى^(٣).

من خلال ما سبق يمكن أن أحدد أهم أسس هذا التعايش فى نقاط، هى:

- ١ - كرامة الإنسان واحترامه كإنسان، بغض النظر عن دينه ولونه وجنسه.
- ٢ - العدل: إن الإسلام يقيم الحياة بين الناس على أسس العدل؛ ليأخذ كل مستحق حقه ومستحقه من رزق بعيداً عن لونه أو جنسه أو أرضه، من تلك الاعتبارات القاصرة،

(١) سيرة ابن هشام ٣١٧/٢، ط مكتبة الخليلى عام ١٩٥٥ م. وقد اختلف العلماء فى دخول الكفار المساجد على ثلاثة أقوال: ١ - المنع مطلقاً. ٢ - المنع من دخول المسجد الحرام خاصة. ٣ - منع المشركين دون أهل الكتاب من المسجد الحرام.. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٠٤/٨.

(٢) انظر: 'السياسة والمجتمع فى العهد النبوى' لإبراهيم حركات، ص ٣٢٠، ط: دار الاتفاق الجديدة، المغرب ١٩٨٩ م.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى: ٥٢١/١.

بل حتى دون النظر إلى دينه، ومن هنا لما قال إبراهيم -عليه السلام-: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ رد عليه القول بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]. أى أن الرزق للجميع، ومن خلق لا بد أن يرزق، ومن هنا عرف السلام بأنه: الذى سلم الثقلان من جوره وظلمه، فهو فى جميع أفعاله سلام لا حيف ولا ظلم ولا تفاوت ولا اختلال، وجعل هذا العدل بين الأفراد والجماعات والدول بخلاف من يتشدد بذلك، ففى ١٣-١٦ من سبتمبر عام ١٩٨١م عُقد فى نيويورك مؤتمر عالمى سمي بيوم السلام العالمى، دعا إلى نزع السلاح لما يمثله من ضرورة لتحقيق السلم العالمى، لكن المتتبع يحق له أن يسأل: هل هذا النزاع يشمل الولايات المتحدة الأمريكية التى تقتل الحرث والنسل فى العراق والصومال وأفغانستان؟ وهل هو لنزع أسلحة دولة اليهود التى تقتل النساء والأطفال؟ أم هو نزع أسلحة المسلمين حتى لا يقاوموا أى اعتداء؟!

والعدل: فى الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل، ومعناه: الذى لا يميل به الهوى فيجور فى الحكم^(١).

٣- الأمن: فلا بد أن يأمن كل مسالم على نفسه وأسرته وعرضه وماله، ومن الأمن على الفكر ما دامت الحرية لا تتعدى إلى حريات الآخرين.

٤- الوفاء بالعهود والمواثيق: إن الوفاء بالعهود والمواثيق من أسباب الأمن حتى فى حال الحرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ومنه حرم الاعتداء على الرسل.

٥- توفير العيش الكريم لكل إنسان، ولذلك أوجب الله حقوقًا فى المال، كالزكاة، وحرم الربا والميسر والاحتكار، وحث على الإنفاق دون تحديد.

(١) النهاية فى غريب الحديث ٣/ ١٩٠.

٦- التعاون التجارى والمعرفى بين الناس: قال ﷺ: «ثلاث لا يمتنعن: الماء والكلأ والنار»^(١)، ومن التعاون والتعايش والتبادل التجارى وقد نظمته الإسلام بين الناس مسلمين وغير مسلمين، بما لا يعود على المسلمين بالضرر، أما ما عدا ذلك فكله مشروع بل مطلوب؛ لأن فى كل كبد رطبة أجرًا، ولذا بذل المسلمون ما لديهم للآخرين من تجارات ومعارف علمية هى التى أسهمت فى نقل الحضارة العلمية من الأندلس وصقلية والشام وبغداد وغيرها من حواضر المسلمين إلى أوروبا والصين وغيرها، دون احتكار أو منع كما تفعل الحضارة المادية الغربية اليوم!

إذا كانت تلك هى نظرتنا إلى التعايش والتعارف، فما هى نظرة الآخر إليه؟ إن نظرة الآخرين تقوم على الصراع والخصام، ومن هنا فإنهم يصنعون الأحداث من أجل بيع السلاح والدواء، ويحتكرون المعرفة، بما فى ذلك الغذاء، حتى ترتفع الأسعار ولو مات الناس جوعاً فى مختلف أنحاء الأرض، كما يحتكرون الدواء!

٧- نشر الدين الحق والسماح له من أجل إخراج الناس من عبادة الهوى إلى عبادة خالق السموات والأرض المستحق للعبادة وحده.

٨- البعد عن الخيلاء والتكبر على الناس ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا﴾ [الحجرات: ١١].

٩- حماية الضعفاء فى الأرض ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ...﴾ [النساء: ٧٥].

١٠- أن الله جعل فى الأرض أقوات البشرية كلها، وأن كل من بذل الأسباب وجد نتائجها، وأن اتباع أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه له أثره الفاعل فى جوانب حياة الأمة المختلفة من اقتصاد وسياسة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ٨٢٦ رقم ٢٤٧٣، والمعجم الكبير للطبرانى ١٥/ ٤٣٧.

يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

١١- الموقف الموحد من الظلم ونشر الفساد في الأرض (التسلح، الحروب، المجاعات، الأمراض، الاستبداد واحتلال الأراضي، نهب الثروات، التدخل في الشؤون الخاصة من سياسة وترية وغيرها).

١٢- استعداد التاريخ كشاهد على الماضي ونظرة للواقع لتظهر معاملة المسلمين مع اليهود والنصارى.

ثم نوازن بين تعامل المسلمين مع غيرهم بـ تعامل أهل الكتابين مع المسلمين في حال الغلبة والانتصار وفي حال الهزيمة والضعف، ولعل في هذا أبلغ الأدلة.

ولا محالة، فإن الدارس المنصف سيخرج بنتيجة مشرفة مبهرة بالنسبة لنا، وربما خجل من إعلان نتيجة بحثه بالنسبة لغيرنا، وحتى لا يكون هذا ادعاءً فإنني سأذكر بعض الأمثلة، وربما كانت أكثر بالنسبة لنا؛ لأننا اليوم متهمون ومتهم ديننا!!

لقد استسلمت مدن كثيرة في الشام وفي الشرق الإسلامي دون قتال؛ لأن أهلها كانوا يفضلون حكام المسلمين، لما وجدوا فيه من عدل على حكام بلادهم وأهل دينهم لما مارسوا عليهم من ظلم، ومن تلك المدن الكثيرة: مدينة حمص، حيث كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يأخذ الخراج من أهلها، فما هم بالتوجه إلى اليرموك بأمر من خليفة المسلمين أرجع إلى أهل حمص خراجهم الذي أخذه منهم، وقال لهم: لقد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم، فبكى أهل حمص وطالبوا ببقاء حكم المسلمين عليهم، وقالوا: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن تغلب ونجهد فأغلقت الأبواب وحرسوها.

ولما دخل الصليبيون الكاثوليك إلى بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢هـ قتلوا في داخل المسجدين (مسجد الصخرة ومسجد عمر -رضي الله عنه-)

سبعين ألف مسلم، عدا من رموهم من عالى البنايات بشهادة مؤرخين صليبيين ونصارى شرقيين، مثل: فوشيه السارترى الذى يحدث بافتخار وغبطة عن هذه الحملة الصليبية وقال: إن الجنود الصليبيين كانوا ينتزعون الرضيع من حضن أمه ويسحقون رأسه بضربه بالأعمدة والجدران حتى يهلك، وسجل تاريخهم فى هذا الصدد تفاصيل تقشع منها الأبدان، من ذلك ما ذكر المؤرخ الأوروبى ديورانت فى قصة الحضارة، ومنه أن الصليبيين جمعوا اليهود وأدخلوهم فى كنيس لهم فأحرقوه عليهم.

وحتى تنضح الصورة، فلنتظر ما فعله صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- حين فتح بيت المقدس عقب معركة حطين بثلاثة أشهر، وذلك عام ٥٨٣هـ، لقد عفا عنهم جميعاً ولم يأخذهم بتلك الجريرة.

وفى الحملة الصليبية الرابعة التى أخطأت طريقها ودخلت إلى بيزنطة، وكان أهلها يدينون بالمذهب الأرثوذكسى، قام الصليبيون الكاثوليك بقتل أهلها وهتك أعراضهم وإهانة دينهم، حتى إنهم عمدوا إلى أكبر كنيسة فى القسطنطينية، وهى كنيسة القديسة آيا صوفيا، وشربوا فيها الخمر وفعلوا الفواحش والمنكرات، وأقاموا امرأة عارية فى وسط الكنيسة إهانة لدين الأرثوذكس، وقتلوا عدداً كبيراً من الرهبان والقساوسة، ونهبوا الثروات العظيمة والقناديل الذهبية التى كانت تملأ الكنيسة، وذهبوا بها معهم إلى روما.

لكن انظر ماذا فعل القائد المسلم محمد الفاتح العثماني حين دخل القسطنطينية فاتحاً فى القرن التاسع الهجرى، ودخل عاصمة الأرثوذكس آنذاك بعد حصار طويل، احتسمى أهلها بكنيسة القديسة صوفيا وأغلقوا الأبواب، وقالوا: إن كان أهل ديننا -يعنون النصارى والكاثوليك- قد فعلوا بنا ما فعلوا فى الحملة الصليبية الرابعة؛ لاختلاف مذهبنا عن مذهبهم، مع توحد ديننا، فماذا سيفعل بنا المسلمون وديننا يختلف عن دينهم بالكلية؟!

فأمر السلطان محمد الفاتح بفتح أبواب الكنيسة، ورأى الناس خائفين يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء، فدخل عليهم الكنيسة وسجد فيها شكراً لله تعالى على ما من به عليه من الفتح المبين، ثم أعلن العفو العام عن أهلها، وأسلم من جراء هذا التصرف عدد

من القساوسة والرهبان، ثم أصدر أمره بتعيين أحد رهبانهم مسئولاً عند السلطان المسلم عن زيجاتهم وخلافاتهم وفض منازعاتهم، حتى قال ذلك الراهب: لقد أكرمني السلطان بما لم يكرمني به الملوك من أهل ديني.

ومن عجب ما نقل من عدل المسلمين مع أعدائهم ما حصل في فتح سمرقند، علي يد القائد المغوار قتيبة بن مسلم الباهلي، ولن تجد لهذه الصورة المشرفة مثيلاً في التاريخ إلا عند المسلمين، فحين فتح المسلمون سمرقند واستقروا فيها ونظموا شئونها وتقلدوا أمرها، وأقاموا فيها حكم الإسلام، قدم وفد من كبار سمرقند إلي خليفة المسلمين في الشام عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - وادعوا أن المسلمين فتحوا سمرقند عنوة دون سابق إنذار أو تخيير، كما تقتضيه قواعد الجهاد في الشريعة الإسلامية، فكتب عمر ابن عبد العزيز إلي عامله علي تلك الديار يأمره بأن ينصب لهم قاضياً ينظر في مظلمتهم، فجلس قادة الجيش المسلم مع رؤساء أهل سمرقند وكبرائهم إلي التحاكم في مجلس القاضي جميع بن حاضر، الذي حكم بخروج الجيش المسلم من سمرقند، ومن ثم دعوة أهلها أو منابذتهم علي سواء، فلما هم المسلمون بالخروج؛ تنفيذاً لحكم القاضي، احتج أهل سمرقند وطالبوا بحكم المسلمين عليهم؛ لأنهم ذاقوا عدلهم ورحمتهم بهم ودخل كثير منهم في الإسلام.

١٣ - حماية غير المسلمين في المجتمع المسلم من خلال:

- حمايتهم من أي عدوان خارجي ومثال ذلك.

- الحماية الداخلية لهم، وبلغت العناية بهم أن سميت شرعاً ذمة الله وسمى

أصحابها أهل ذمة، وهي كلمة مدح.

- إعطاؤهم الحريات العامة في تدينهم ومطاعمهم ومشاربهم، ولتذكر قول أمير

المؤمنين عمر: «ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شيبتك ثم ضيعناك في كبرك، قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه».

وأرى من المناسب لهذا الموضوع أن نختمه بما أورده الشهيد سيد قطب عند تفسير

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» [العصر: ١-٣]، وقد قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص -رضى الله عنهما- عامل مصر، وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بأبائه قائلاً: خذها من ابن الأكرمين، فاقصص منه عمر وقال كلمته الشهيرة: «متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». وقال على بن أبى طالب: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق»^(١). وجاء فى معاهدة الخليفة الفاروق مع أهل القدس النصارى: «هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا نسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبيهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار منهم أحد»^(٢).

كما كتب الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته كتاباً جاء فيه:

«أما بعد، فانظر أهل الذمة فارق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه»^(٣).

ذلك ما فعله المسلمون قبل ألف وأربعمائة عام، واستمروا عليه، وبذلك عاش فى أكنافهم ومعهم إخوانهم فى الإنسانية يكلثوهم بالرعاية والحماية، ويدافعون عنهم ويسمحون لهم بما سمح لهم به فى دينهم.

فماذا فعل الغرب فى ماضيه وحاضره، أليس هو ذلك الذى منع المسلمات من حجابهن وأوجب عليهن التعرى والتكشف المخالف لجميع الأديان والفطرة السليمة؟! ومنعهن من دخول المدارس والبرلمانات والوظائف وهن مستترات مع أنها حريات شخصية ودينية؟ فمن الذى يمنع التعايش السلمى إذاً ومن الذى يقبله؟!

فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا فى الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً، بل عدوا مع نفوسهم وغيرهم وهم ليسوا مخيرين فى ذلك بل هو أمر واجب عليهم لا خيار لهم فيه.

(١) كما فى نهج البلاغة ص ٤٢٧، تحقيق: صبحى صالح.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك، ٤٤٩/٢.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد، ٣٨٠/٥.

فى ظل حكم هؤلاء وتحت رغبتهم استطاعت الأمم والشعوب حتى المضطهدة منها فى القديم أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب، وأن تسهم فى بناء العالم الجديد، وبذل كل سعة فى خدمة الدين والعلم والناس.

يقول سيد قطب - رحمه الله -: "إن الإنسان جسم وروح، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقياً متزنًا عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً مناسباً لائقاً بها، ويتغذى غذاءً صالحاً، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسمى يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى. وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة".

إلى أن يقول تحت عنوان: «دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة»:

"وكذلك كان، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأزهر فى جميع هذه النواحي من هذا الدور: دور الخلافة الراشدة، فقد تعاونت فيه قوة الروح والدين والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل. وفى ظهور المدنية الصالحة.. كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة فى عصرها، وتسود فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، ويسير الرقى الخلقى والروحي اتساع الفتح واحتفال الحضارة، فتقل الجنايات، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها رغم دواعيها وأسبابها، وتحسن علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالفرد"^(١).



(١) 'فى ظلال القرآن' لسيد قطب، ١٣٨٦ هـ ٨ / ٩٥.